

الرأي الجغرافي الحبيب عند الدكتور إبراهيم شريف

أ.د. عبد الزهرة علي الجنابي

م.م. سمير فاهم سلمان

كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة بابل - العراق

الملخص

ولد إبراهيم شريف عام ١٩١٦ في جمهورية مصر العربية، وحصل فيها على شهادة الليسانس عام ١٩٣٧، وعلى الماجستير عام ١٩٤١، وعلى الدكتوراه عام ١٩٥٢، ونال لقب الأستاذية عام ١٩٦٠. انتقل إلى العراق وعمل تدريسياً في جامعة بغداد منذ عام ١٩٤١ حتى طوى الأجل ثراه وأوقف عطاءه عام ٢٠٠٠. عُضدت أطروحته للدكتوراه ونُشرت كتاباً وأضاف لها ثمانية كتب تأليفاً، متفرداً ببعضها ومشاركاً زملاء له ببعضها الآخر. وما أمكن توثيقه من بحوث منشورة له كان تسعاً. ناقش وأشرف على عشرات من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه مما لم يتمكن من حصره لكثرتها.

أبرز مؤلفاته: الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح العربي الإسلامي، جغرافية الصناعة، جغرافية التربة، وجغرافية الطقس. تميز بعطاءه العلمي الثر، وبإسهاماته الخلاقة، وبإضافاته الفكرية اللافتة، لعل أبرزها:

- رفضه ثنائية علم الجغرافيا، واعتباره له يكمل نصفه نصفه الآخر.
- إنه كان موسوعياً بحق، فلقد ألف كتباً وكتب بحوثاً وأشرف على رسائل وأطاريح وناقش منها ما هو في حقل الطبيعة والبشر بكفاءة نادرة وبعلم ضليع.
- تميّزت جل أعماله بالأصالة الفكرية، فما سبقه إليها كثير، وما أضاف لها بعده سوى القليل، ولا تزال أعماله كتباً وبحوث قبلية ومراجع معتبرة للدارسين برغم تقادم زمن إنجازها.
- أضاف للأفكار العلمية التي جاءت عن السهل الفيضي في العراق بدءاً من تسميته، مروراً بتكوينه، وإنهاءً بدوره الحضاري الفاعل على مر العصور.
- كان عربياً فكراً وسلوكاً، ولقد شاعت الأقدار أن يجسدها، بقصد أو بدونه، بولادة في مصر، وحياته في العراق، ووفاته وكفن ثرى في الأردن.
- جسّد في حياته أخلاق العلماء فضلاً وتواضعاً وسماحةً وعطاءً.

المقدمة

لم تتل دراسات الفكر الجغرافي نصيبها وافياً من البحث والاستقصاء كمثيلاتها في فروع علمنا العديدة، هذا برغم أهميتها في بلورة مفاهيم ومناهج البحث والأطر الفكرية لعلم الجغرافيا عامة ولفروعه أيضاً. ونجد أن من الضروري إيلاء مثل هذه الدراسات اهتماماً أكبر وخاصة من قبل من اشتد يراعه وصلب عوده وارتنى مقامه العلمي والفكري.

قدّم علماءنا العرب مثلاً يُحتذى في الإبداع في شتى ضروب المعرفة الصرفة والإنسانية ومنها علمنا الجغرافيا، وكان منهم أساطين غدا إسهامهم منارة للفكر الإنساني بكماله وكليته، نفخر بهم ونفتخر لهم حتى يومنا هذا، حتى أن الغربيين ليقفون مبهورين أمام إنجازاتهم الفذة التي كان لها الفضل في إيصال الحضارة العالمية لما وصلت إليه الآن، وإن كانت نهاياتها الحالية قد جاءت على أيدي علماء الغرب.

ما أحرانا أن نقف عند من أضاف وصحح مسيرة العرب في الفكر الجغرافي، وقاد ركب الإبداع العربي في أزمانه المختلفة.

ومن الغريب تجاهلنا للمحدثين والمعاصرين من أمثالهم، حتى صار العظيم مغموراً حتى يرحل، والراحل من قريب منسياً حتى تعافه الذاكرة. غيرنا يزهو بالقليل النادر عندهم يؤطره نوراً، وننسى أو نتناسى عظماء بيننا أعطوا أو ماضون في الدرب أو كانوا قبل هنيهة، ولما نزل نهل من وحي علمهم وفكرهم الوقاد.

واحدٌ منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم إبراهيم شريف، العصامي، العربي، العالم الجليل، المتوقد فكراً وعطاءً، المتواضع، الموسوعي الأصل، ذاك هو أبو كمال. كان لنا معه رسالة أكاديمية، واليوم بحث. نفتح الآفاق والأبواب على مصارعها لوقفات جديدة مع علماء آخرين غرّ ميامين، راحلون ومعاصرون، سابقون ولاحقون، أسهموا ويسهمون في بناء نهضتنا الفكرية والعلمية غير مترددين من نقد يوجه للخطوة الريادية الأولى في هذا المسعى.

واجهت البحث عدة مصاعب جدية أهمها ندرة الوثائق والتوثيق عن عالمنا رغم عطاءه الغزير، ما يعزز دعوانا للكتابة في هذا المجال وتوثيق أعلامنا وأعمالنا. ما مقدار ما أضافه كل من حسبه باحثاً أو دارساً مفكراً أو فيلسوفاً؟ أيمكننا وصل مجهوداتنا الفكرية ببعضها وبأي طريق؟

هل أفضت أو يمكن أن تفضي مباحثاتنا الفلسفية إلى استنباط مدرسة عربية في الجغرافيا ؟ أو هل نقرب من هذا في الأقل ؟ أو هل نحن في الطريق الصحيح نحوه أصلاً؟

سعيانا أن يكون البحث في هذا المسعى طريقاً. قد لا نكون موفقين فيه تماماً، ففي البحث بعضٌ من نواقص هنا وهناك، فهي المحاولة المحفوفة بالتوجس لكنها الواثقة بالريادة، مع دعوة خالصة لإكمال النقص فيها مع الترحاب بكل رأي سديد اتفق مع رؤانا أم لم يتفق.

المبحث الأول : السيرة الذاتية والعلمية

أولاً : السيرة الذاتية:

ولد إبراهيم إبراهيم شريف عام ١٩١٦ في مصر، وحصل على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة عام ١٩٣٧، وكان أثناءها واحداً من ثلاثة طلاب ضمتهم شعبة الامتياز للمراحل الثانية والثالثة والرابعة. حصل على شهادة الماجستير من جامعة القاهرة أيضاً عام ١٩٤١، وكان موضوع رسالته (الجغرافية البشرية لأراضي البوادي شمال الدلتا).

عُيّن مدرساً في المدرسة الشرقية المتوسطة في بغداد عام ١٩٤١، وتنقل بين عدة مدارس في بغداد. حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٢ من كلية الآداب- جامعة الإسكندرية وكان موضوع أطروحته (الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي) وبمرتبة الشرف الأولى، ونال عليها ثناءً وتقديراً من جهات عدة داخل مصر وخارجها.

دُعي للعمل مرة أخرى في كليات جامعة بغداد، فعمل تدريسياً في كلية التجارة بدءاً من عام ١٩٥٤. حصل على مرتبة الأستاذية عام ١٩٦٠. تنقل في عمله بين عدة كليات هي: التربية ثم كلية الآداب، وبقي فيها حتى وافته المنية عام ٢٠٠٠ (الجمعية الجغرافية العراقية، ١٩٩٩).

ثانياً: السيرة العلمية:

•الكتب التي ألفها :

- الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه حتى الفتح الإسلامي (إبراهيم شريف ،١٩٥٢).
- جغرافية أوربا (إبراهيم شريف ،١٩٦٠).
- نهر الأردن ومشاريع الري (إبراهيم ،١٩٦٢).
- الشرق الأوسط (إبراهيم ،١٩٦٥).
- الجغرافية البشرية (إبراهيم ،١٩٧٦).
- جغرافية الصناعة (إبراهيم ،١٩٧٦).
- جغرافية التربة (إبراهيم ،١٩٨٥).
- جغرافية الطقس (إبراهيم ،١٩٩١).
- الجغرافية الطبيعية (إبراهيم ،١٩٩٧).

•البحوث العلمية:

- أنجز شريف عدداً من البحوث، نشرت في المجلات العلمية الرصينة، أمكن توثيق الآتي منها:
- التمر في العراق (إبراهيم ،١٩٥٢، ص ص ٨١-٨٥).
- مناطق الأهوار في القسم الجنوبي من العراق (إبراهيم،١٩٥٤، ص ص ٣٣-٦٨).
- حضارة المطاط وصناعته (إبراهيم ،١٩٧٦، ص ص ٢٧-٦٠).
- حضارة دودة القز وصناعة الحرير (إبراهيم ،١٩٨٠، ص ص ٥-٥٥).
- الصناعة النووية في إسرائيل (إبراهيم،١٩٩٧، ص ص ٩٠-٩٦).
- السهل الفيضي في العراق وقول آخر في تكوينه (١٩٩٩، ص ص ١٣٥-١٦٦).

ج- بعض الرسائل والأطاريح التي أشرف عليها:

- أشرف الدكتور شريف على إنجاز عدد كبير من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، ولم يتسن توثيق سوى عدد محدود منها هو:
- عباس علي التميمي، تركب صناعة الطابوق في محافظة بغداد (دراسة في جغرافية الصناعة)، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٧٤.
- عبد الرزاق محمد البطيحي، الأنماط الزراعية في العراق، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٧٤.
- نعمان دهش العقيلي، صناعة السمنت في العراق، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٧٦.
- عبد الزهرة علي الجنابي، صناعة الزيوت النباتية الغذائية في العراق، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٨٧.
- يوسف يعكوب صالح الهيتي، قضاء هيت (دراسة في الجغرافية الإقليمية)، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٩١.

- علي مصطفى، هور الحمّار، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٩١ .
 - يوسف محمد الهذال، تكرار المنخفضات الجوية المختلفة وأثرها في تباين قيمة الإشعاع الشمسي الكلي وشفافية الهواء في العراق خلال السنوات ١٩٨٠ - ١٩٨٩، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٩٤ .
 - عبد علي حسن الخفاف، تحليل العلاقات المكانية لوفيات الأطفال صغار السن في محافظات الفرات الأوسط، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٩٧ .
- المبحث الثاني: قراءة في أهم مؤلفاته:

أولاً: جغرافية الصناعة ١٩٧٦

- يقع الكتاب في (٦١٩) صفحة من الحجم المتوسط.
- أفاد الكتاب من (١١١) مرجعاً جميعها باللغة الإنكليزية.
- خصص الفصل الأول من الكتاب لمفاهيم الصناعة وأنواعها وأنماطها، فضلاً عن تعريفات وافية بما يختص منها بجغرافية الصناعة.
- قدّم الكتاب عرضاً وافياً لأهم عوامل قيام الصناعة وتوطنها بثلاثة فصول، وبين أهمية وأثر كل منها في تحديد الموقع الصناعي.
- وفي أربعة فصول أخرى استعرض تفصيلاً الصناعات الرئيسة في العالم مثل الألمنيوم، والنحاس، والحديد والصلب، والهندسية، والكيمياوية، والمطاط .
- وخصّص الفصل التاسع والأخير من الكتاب لوصف الأقاليم الصناعية القائمة في الدول الصناعية مبيّناً موقعها وامتدادها وأهم الصناعات القائمة فيها ، وموضحاً عوامل نشوءها.
- ختم كل فصل بقائمة وافية من الهوامش تضمنت شروحات تفصيلية وإشارات للمراجع التي اعتمد عليها الفصل، فضلاً عن خلاصة للفصول التي بدت الحاجة واردة لتلخيصها. وهذا السياق لم يكن معمولاً به كثيراً، ولشريف فضل في اعتماده.
- يعد الكتاب مرجعاً أساسياً للمهتمين بالصناعة ، وموسوعة كاملة الأبواب والإيضاح للمفردات التي تناولها الكتاب وخاصة الصناعات والأقاليم الصناعية.
- قدّم المؤلف به عصاره ما أنجز في ميدانه من المؤلفات باللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية، ومن العسير أن يُنجز مؤلف إطلع بتمعن على هذا العدد الكبير من المصادر بغير لغته الأم ليعيد صياغتها ويقدم منها مؤلفاً بهذا القدر من التفصيل من دون حشو أو تكرار وبلغة عربية رصينة موجزة ومن دون إسفاف.
- عرض شريف كتابه لقارئه بثقة المطلع تفصيلاً على موضوعات مؤلفه ، برغم أن الصناعة هي ليست من انجاز بلدانه في منطقتنا العربية، فهي منجز أوربي بامتياز، كما لم يعيش هناك أي حين من عمره فيها.
- إن من المؤكد أن جميع من قرأ الصناعة أو كتب فيها بحثاً علمياً أو رسالة أو أطروحة أكاديمية، كان له في هذا المؤلف معين وفير العطاء .

•وفر للقارئ شروحات وافية تفصيلية عن شوارد موضوعاته، لكنه قدمها في نهاية كل فصل، كي لا تضيق عليه متعة التأكيد على الأساسية منها في المتن.

•كان ملماً أو المّ ليس بصنّعه فحسب، بل سبر أغوار علوم أخرى تداخلت مع علمه، وأمدته بالنافع من الحاجة إليه علماً: في الكيمياء والفيزياء وعلاقتهما بالصناعة، فضلاً عن كل علوم الجغرافية قريبة من صناعته أو حتى بعيدة.

ثانياً : جغرافية التربة ١٩٨٥: وهو مشترك في التأليف مع الدكتور علي حسين الشلش.

•يقع الكتاب في (٣١٢) صفحة من الحجم المتوسط.

•أفاد المؤلفان من (٨٣) مصدراً، كلها أجنبية عدا اثنان منها فقط بالعربية.

•في المقدمة بيّن الكتاب جانبين هامين أعطيا للكتاب أهمية خاصة هما:

•حدثت نشأة علم التربة الذي وُضع على يد العلماء الروس نهاية القرن التاسع عشر، ونقلت أدبياته إلى الإنكليزية أوائل القرن العشرين، وإن الكتابة في علم حديث النشأة لها ميزة خاصة تنبئ عن حذاقة المؤلفين وتوقدهما الفكري.

•وبسبب الأساس الأدبي لمعظم الجغرافيين، فإنهم افتقدوا غالباً إلى المعارف الفيزيائية والكيميائية والحياتية، فكانت دراساتهم للتربة سطحية بدرجة كبيرة، إلا إن المؤلف قيد البحث جاء على غير ذلك، ممتلئاً بالدقيق من العلوم الصرفة بما له علاقة بأحوال التربة المختلفة.

•وعلى حد اطلاعنا المتواضع أن أحداً لم يتجشم عناء خوض غمار هذا الميدان من الجغرافيين حتى الآن، فلهما قصب السبق فيه والوحدانية أيضاً برغم مرور أكثر من (٣٥) عاماً على تأليفه، مع الكثير من الإبداع كما في التالي.

•إن الكتاب غطى علم التربة من زوايته الجغرافية : تكوينها، وخصائصها، وتصانيفها، وتوزيعها، وصيانتها، وهي كل ما يحتاج الجغرافي معرفته عن التربة.

•وضم الكتاب مرفقاً بمجموعة من الأشكال التخطيطية لتوزيع التربة وخصائصها، أغنت القارئ بدقتها وتعبيرها الفني والعلمي.

•ولقد اعتمد المؤلفان على ذات المنهجية التي أعتمدت في المؤلف السابق من حيث الإشارة إلى المصادر والهوامش والتبويب وغيرها.

•ومع قدم الكتاب تأليفاً فإنه لا يزال يمثل مرجعاً أساسياً لكل المهتمين بهذا الاختصاص الدقيق من علم الجغرافيا وعلم الزراعة على حد سواء .

ثالثاً : جغرافية الطقس ١٩٩١

•يقع الكتاب في (٣٢٨) صفحة من الحجم المتوسط.

•اعتمد المؤلف في كتابته مؤلفه هذا على (٦٣) مصدراً بالإنكليزية و (١٣) مصدراً بالعربية.

•غطت محتويات الكتاب علم الطقس وعناصره وتغيراتها المختلفة، فكان شاملاً ووافياً.

•خُصص الفصل الأول للتعريف بالطقس والمناخ والفرق بينهما وتطور الأبحاث فيهما.

•وخُصص الفصل الثاني لتقديم تعريف مفصل ودقيق بالغلاف الغازي ومكوناته وطبقاته.

- وكان نصيب الحرارة من الكتاب كبيراً، إذ تناولتها أربعة فصول من الكتاب تفصيلاً، بدءاً من إنتاجها والعوامل المؤثرة في قيمتها في الغلاف الجوي، ثم على سطح الأرض، ونقلها ودرجاتها وأجهزة قياسها وتغيراتها، ما أعطى تغطية كاملة لهذا العنصر الأساسي من عناصر الطقس الذي يؤثر هو الآخر في عناصر الطقس الأخرى.
- وتناول الكتاب الضغط الجوي بفصل، والرياح والتيارات بفصل آخر والكتل الهوائية بثالث.
- أما الرطوبة والتساقط فخصص لهما الفصل العاشر من الكتاب .
- وذهب الفصل الأخير من الكتاب للتعريف بالنتبؤ الجوي، لبيان أهميته ودوره في حياة الإنسان.
- اعتمد المؤلف ذات السياق الذي اعتمده في كتبه السابقة في أسلوب الإشارة إلى المصادر والهوامش. وكما سبق فانه أي شريف قد انصرف فيه إلى أسلوب خاص به.
- تضمن الكتاب عدداً كبيراً من الأشكال التخطيطية التي أغنت الكتاب وقدمت لقارئه تصويراً وافياً عن المواضيع قيد البحث في الكتاب.
- لا يزال الكتاب مرجعاً هاماً من مراجع علمي الطقس والمناخ وللدارسين فيهما، ولم تتراجع قيمته العلمية تبعاً لتقدم سنة تأليفه .

المبحث الثالث: الإضافات الفكرية

أولاً : رأيه في ازدواجية علم الجغرافيا :

اعتاد الجغرافيون القدامى والمحدثون على مقولة شطر علم الجغرافيا بين ما هو طبيعي وما هو بشري. الأول يهتم بطائفة من الظواهر القائمة ولم يكن للإنسان دور في وجودها، إلا أنه مدعو لدراسة موضوعاً وتوزيعاً وأنماطاً، في محاولة لتطويعها واثم الإفادة منها، وربما محاولة التحكم فيها، ومنها: الفلك والطقس والمناخ وأشكال سطح الأرض والتربة والبحار والمحيطات أو الموارد المائية والنبات والحيوان. أما الثاني فهو المتعلق بالإنسان وأنشطته المختلفة مثل: السكان والاستيطان بشقيه حضراً وريف، السياسة، السياحة، الاجتماع، التاريخ، الخرائط، الفكر الجغرافي، واقتصاد الإنسان زرعاً وصنعاً ونقلًا وتجارة.

وإذا كان علم الجغرافيا قد رسا على ثنائيه Dualism الطبيعية والبشرية على يد العلماء العرب في العصور الإسلامية، وهذا ما جاءت به الأعمال العظيمة التي تركها العلماء العرب في حقل الجغرافية الإقليمية التي لا تزال تتنوّأ مكانة خاصة في مناهج الدراسة الجغرافية (علي المياح، ١٩٨٩، ص ٢١٤)، فان المناقشات المنهجية التي جاءت بعد عصور الكشف الجغرافي ساعدت على بلورة منهج علم الجغرافيا الحديث الذي صار يؤكد على دراسة التباين المكاني Spatial Variation لسطح الأرض ودراسة العلاقات Relation Ship بين الطبيعة والإنسان (هارتسورن، ١٩٨٤، ص ص ١٤-١٥).

إن التفاعل بين عناصر البيئة الطبيعية والإنسان ينجم عن تباينات مكانية Spatial Variations وزمانية Temporal Va، ترتبط هذه بالمكان وخصوصيته من جهة القدرات والإمكانات المتاحة للارتفاع بها من قبل الإنسان. وكلما تقدم الإنسان في قدراته العقلية والحضارية أمكنه الإفادة من الطبيعة والتأثير فيها. وبهذه الإضافات فان علم الجغرافيا صار يدرس اليوم الاختلاف بين الأمكنة والترابط المكاني للأشياء التي تقع بجوار بعضها أو ما ندعوه بالعلاقات المكانية للأشياء والظواهر (عبد الزهرة الجنابي، ٢٠١٣، ص ٢٧).

يبدو أن د. شريف لم يوافق الرأي القائل بثنائية علم الجغرافيا، بل قال بإجمالها وكليتها. ويمكن أن نخلص إلى قناعته هذه من خلال :

- تكراره الرأي قولاً بهذا المعنى، فكان دائم التأكيد على الترابط بين فروع علم الجغرافيا، ويشير إلى أن على الجغرافي أن يكتب في كل الاتجاهات ويلم بها (سمير سلمان، ٢٠١٣، ص ٣٢).
- ألف شريف كتباً وكتب بحوثاً وأشرف على رسائل وأطاريح علمية أكاديمية راقية المستوى في حقول: الجغرافية التاريخية، السياسية، الصناعة، الطقس والمناخ، التربة، الفكر الجغرافي، الزراعة، المناخ التطبيقي... الخ. ولقد عرفنا أن ما كان متعذراً للإشراف عليه في الدراسات الأكاديمية في كليته (الأداب - جامعة بغداد)، كانت تتاط مهمته إلى د. شريف مع الثقة الكاملة بقدرته على الإضطلاع بالمهمة. ولقد أبدع وأجاد فيما كتب وأشرف وناقش وقوم منها، ويشمل ذلك ما جاء منها في حقل الطبيعة والبشر على حد سواء .
- ولقد أختير عام ١٩٩٧ أو ما بعده بقليل من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي مقوماً لبحوث العلماء في الميادين الإنسانية بمختلف فروعها. وقد أنجز المهمة المكلف بها على أتم وجهه، وقدم خلاصة بكتاب إلى الوزارة تضمن رأيه بأن الباحث في علم الجغرافيا ينفرد عن سواه في سائر العلوم الصرفة والإنسانية بحاجته إلى الإلمام والمعرفة بحد أدنى في الأقل في شتى العلوم الصرفة والإنسانية وخاصة القريبة من تخصصه، فيما يمكن لغيره أن يكتب في اختصاصه الصرفة دونما حاجة لمعرفة حدوداً ما من علوم أخرى. وفي علم الجغرافيا على الباحث أن يلم إلماماً وافياً بكل فرع من فروع علمنا حتى يمكنه كتابة بحث أو مؤلف ذي اعتبار علمي (عبد الزهرة الجنابي، مقابلات، ١٩٩٧).
- واختارته وزارة التربية مع مجموعة من زملائه لتأليف كتابين منهجيين لطلبتها في المستوى الثانوي هما: الجغرافية الطبيعية، والجغرافية البشرية. هذا ما يدعونا للاعتقاد أن شريف لم يكن يمانع في تقديم المعلومة النظرية مجزأة إلى ما هو طبيعي أو بشري كي تتناسب تلك المعلومة مع قدرة الطالب على إدراكها، ولكنه يرى أهمية إلمام المتخصص في العلم والمؤلف فيه بكل منها على قدر المساواة بدليل أنه كتب في كليهما تأليفاً.
- قام بتدريس شتى فروع المعرفة الجغرافية وعلومها لطلبته ليس على مستوى الدراسة الأولية فحسب، بل والعليا أيضاً ولمراحلها الماجستير والدكتوراه وبنفس القدر من الدراية التفصيلية الدقيقة لكل منها وبما يتناسب وهذه المستويات العلمية.

ثانياً: آراءه في تكوين السهل الفيضي في العراق

- في اسم السهل: شاع استخدام لفظ السهل الرسوبي للدلالة على هذا السهل الذي يمتد طولياً وسط وجنوبي العراق من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي وبطول (٦٥٠) كم، وبامتداد عرضي معدله (٢٠٠) كم، فيما تبلغ مساحته الإجمالية حوالي (١٠٣٠٠٠) كم^٢. وقد يطلق عليه البعض تسمية الدلتا. وللدكتور شريف رأي آخر في التسمية مفاده أن من الأفضل تسميته بالسهل الفيضي بدلاً من الرسوبي، لعدة أسباب أهمها: أن الترسيب ليس وحد هو الذي كوّن السهل (كما سيرد وصف ذلك في النقطة اللاحقة)، كما أن في سطح السهل من الظواهر الجغرافية المعقدة ما يميزه عن أمثاله، وأهمها أنه غير متماثل في التكوين: ففيه عدة دلتاوات وفي الأقل اثنتان كبيرتان، واحدة كوّنوها دجلة والأخرى الفرات، فضلاً عن دلتاوات صغيرة تتداخل مع الكبيرة منها، ولكل من هذه الدلتاوات كيانه المستقل بواديه وبضفافه وحوضه وحجمه واتجاهات سطحه وترتيبه. ويضم السهل أيضاً مجموعة

من المنخفضات أو الأهوار التي يرتبط كل منها بنهر أو فرع نهر أو ما تسمى بالثوق الخارجة عن ضفتي الأنهار الرئيسية، ويرتبط تكوين هذه الأهوار ومساحاتها بمقدار المياه التي تغذيها، وأهم هذه الأهوار: هور الحوزة في الجانب الأيسر لدجلة، وأهوار القرنة ما بين النهرين، وهور الحمّار يمين الفرات (إبراهيم، ١٩٩٩، ص ١٤٥-١٤٧). وناقش شريف تفصيلاً تسمية البطائح المرتبطة بالسهل، فتسمية الهور هي الأقدم، والأهوار موجودة جنوب السهل، على مقربة من الخليج. أما البطيحة (وجمعها بطائح) فتقع جنوب الكوفة وواسط، وقد تكون هذه التسمية قد ظهرت أوائل القرن السابع الميلادي، وليس بعيداً حسب رأي شريف أن هور الحمّار كان يطلق عليه قديماً بطيحة الحمّار، فالهور والبطيحة تسميات محلية وقد تكون هناك تسميات أخرى لظاهرة واحدة هي ما تسمى أهواراً أو بطائح. والأهوار أوالبطائح محلية يرتبط وجودها بفيض مياه المجرى المرتبطة به تكويناً، إلا أنها مؤهلة لأن ينضم بعضها إلى بعض وتكوين بطيحة إقليمية كبرى أو بطائح إذا انتشرت عليها مياه فيضان نهري دجلة والفرات معاً في وقت واحد (إبراهيم، ١٩٩٩، ص ١٥٠).

• **في تكوين السهل:** يختلف ما رآه د. شريف في الطريقة التي تكوّن بها السهل الفيضي عن النظريات التي جاء بها من سبقه في درسه. أخذ منهم بلا شك، ولكنه اختلف عنهم في الكثير وتوسع في الرأي وصفاً وملاحظة دقيقة للتطورات التي مر بها السهل، رغم أنه لم يمتلك من أدوات البحث كمن سبقه فيه، فمنهم من كان في فرق بحث جيولوجية استخدموا في البحث أجهزة دقيقة للحفر والتحليل والقياس والمقارنة، ومن الفرق من استخدم السفن وأدوات الرسم والتحليل على سطح الماء وتحتّه، لكنه لم يمتلك غيرالرأي وفكره الوقاد.

والسهل في رأي شريف كان حوضاً انكسارياً بين جبال شمال العراق والهضبة غربه والجزيرة في شماله الغربي. وقد تكوّن السهل وأخذ شكله ووضع نفسه بنفس الزمن الثالث الذي تكونت فيه جبال طوروس في تركيا وجبال زاكروس في إيران وجبال العراق في الشمال الشرقي منه. وعلى عكس ما رأى أسلافه حيث قالوا أن السهل كان امتداداً للخليج ممثلاً بماءه وامتلاً تدريجياً بترسبات دجلة والفرات والأنهار الصغيرة الأخرى التي كانت تصب فيه يوماً، فإن شريف رأى أنه كان وادياً جافاً منذ الزمن الثالث، إلا أن تغير أحوال الأرض ومناخها من جاف إلى مطير، ومن جليدي إلى دفيئ وممطر قد ساعد على أن تقوم الأنهار والخليج أيضاً بغمر بعض أجزاءه، وربما في موسم الفيضانات والأمطار الجياشة ومع ارتفاع مستوى سطح البحر بحدود (٥٠) متراً عما هي عليه الحال، قد يكون السهل قد غُطي كاملاً بعض الأحيان بالمياه المالحة حيناً والعذبة أحياناً أخرى. وعندما ارتفعت مياه الخليج بمقدار (٣) متر في آخر فترة دفيئة ممطرة ربما تكون مياه الخليج قد غطت جنوب السهل حتى أور وأريدو جنوب السهل.

أما الأنهار فقد كان دورها في الغمر وتكوين دلتاوات صغيرة كما أسلفنا وأهم هذه الأنهار هي: المنصرفه نحوه من الشمال دجلة والفرات، ومن الشرق الكارون، ومن الغرب الأودية وأهمها الباطن وهوران وسواها وديان أخرى قادمة من الجزيرة العربية. وكان للرياح فعل هام أيضاً حيث نقلت الرياح الهابة من الصحراء الغربية المجاورة من سطوح تلك الصحاري كميات كبيرة من المفتتات الناعمة وخاصة في أوقات ما قبل العصر المطير. يضاف لهذا الرواسب البحرية التي تلقاها السهل أثناء فترات طغيان مياه الخليج عليه أثناء العصر المطير وخاصة أول عصور الزمن الرابع (البلايوسين) (إبراهيم، ١٩٩٩، ص ١٣٩-١٤٠).

● **الأهمية الموقعية:** أما عن الأهمية الموقعية لهذا السهل في بناء الحضارات عليه من قبل ساكنيه فكان موضوعاً لأطروحته للدكتوراه، وليس من الإنصاف قصرها ببعض سطور هنا، ولكن يكفي فخراً أنها عُصِّدت ونشرت كتاباً مرجعياً يمكن الرجوع إليه تفصيلاً وقد أفاض في بيان هذا الدور (إبراهيم، ١٩٩٩، ص ٣٠٥). كما يمكن العودة إلى بحثه عن أهوار العراق أيضاً.

ثالثاً: الأصالة الفكرية: تميز جلّ أعمال د. شريف بالأصالة، وفيما يبدو أنه كان مسكوناً بهذه الصفة، باحثاً عنها وقد تلبسته وقرن بها، حتى رافقته في معظم أعماله العلمية كتباً وبحوثاً، بدءاً من أطروحته للدكتوراه. وهو في ذات الوقت لم يكن مغامراً علمياً، بل كان واثقاً من نفسه وقدراته كل الثقة، فحينما يكتب عن القديم في العراق وهو في مصر ويدرسة أكاديمية، يعرف أن عليه الوصول إلى الصفة الأخرى بوقت محدد. ومثال آخر يؤكد ما ذهبنا إليه فيما كتب عن الصناعة النووية الإسرائيلية، في وقت كانت فيه إسرائيل تتكتم بشدة على مسعاها في مجال امتلاك هذه التكنولوجيا، حتى أن أحداً لم يستطع تقديم أية معلومة ذات شأن في هذا الموضوع برغم أن إسرائيل كانت متقدمة جداً في أبحاثها حتى أنها امتلكت المئات من الرؤوس النووية المجربة. ويمكن تتبع مثل هذه الأصالة أيضاً في بحوثه الأخرى عن حضارة المطاط، ودودة القز وصناعة الحرير، مثلما تميزت أعماله الأخرى عن السهل الفيضي في العراق وكتبه المرجعية بالأصالة كما أسلفنا في مبحث سابق.

رابعاً : الموسوعية: ونُقِر للدكتور شريف بموسوعيته التي سعى لها مع عدد محدود جداً من أبناء جيله فقط الذين عاصروه منهم: أ.د. محمد حامد الطائي وأ.د. علي محمد المياح، إلا إنه تفوق وأفاض بهذه الصفة الجليلة حتى غدت لصيقة به، يعرفها عنه القاصي والداني، ولعل طلبته وخاصة في المراحل العليا كانوا أكثر من يعرفها فيه ويؤكدوا له فضلاً.

خامساً: التحلي بأخلاق العلماء: لم يترك الدكتور شريف فضيلة لعالم إلا وجسّدها في تعامله مع زملائه ومع طلبته في كل مراحل درسه. يأتي التواضع في مقدمة خصاله الحميدة، كان يقف إجلالاً للصغير عمراً ويحنو، وترفع أبدأ عن قول الأنا، فكان ينصح باستخدام عبارات تخلو من النرجسية والاستعلاء مثل: فيما يُعتقد: ويرى البعض، بل ويزجر من يرى أو يعتقد. ومزية أخرى فيه وجدناها عنده حيث يوزع عطاءه الثر من دون حدود ومن غير ثمن يريد، وكان يردد خذوا عني واكتبوه لأنفسكم أنتم الجدد، فالعلم وما أخذتم عني مشاع، ولا حكر أو احتكار فيه. يسأل طلبته أي حد من العلم تريدون؟ وعندي لكم ما يزيد لو تطلبون. لم يقصّر عطاء العلم عنه على مكان أو زمان، في مقر عمله أو في الدروب أو في الدار، فكلها عنده سواء مكاناً للعطاء. وقلّ من لم يدخل داره للنهل منه شيخاً جليلاً كريماً في العلم مع الزاد والملح.

ومن غيظ فيضه أن لا أحداً من طلبته عافه غاضباً منه، فكان لطيف المعشر ملاطفاً هذا وتلك، بشوش الوجه، نحفظ له ونردد كلمات الدعابة له مع من لا يتذكر له اسماً ولداً كان أم بنتاً.

سادساً: عربي الفكر: جسّد في حياته ومماته عروبيته الناصعة، فكراً وسلوكاً، مصري الولادة، عراقي الهوى. حفظ وحافظ على عروبيته مصرية وعراقية في آن واحد. نشأ في مصر وترعرع، وكتب عن العراق وفيه أقام، وظل في العراق طويلاً لكنه لم ينس لهجته المصرية الجميلة حتى فارقتنا. وعندما أدارت له بغداد ظهراً ذات يوم، رحل إلى مصر فالإمارات العربية، لكن حادثاً أليماً ألّم به هناك فعاد لبغداد حزيناً، وعندما احتاج لاستكمال علاجه بعيداً رحل عنها مجدداً، وبعد مدة رغب العودة إلى بغداد فشد الرحال إليها، لكن القدر لم يمهل فوافته المنية في طريق عودته

إلى العراق، وتوفي في الأردن في ١٨/١/٢٠٠٠، ودفن فيها. رحمة لأبي كمال ولد في مصر، وعاش في العراق، ودفن في الأردن، فكان عربياً خالصاً وجغرافياً حاذقاً منذ ولادته حتى الممات .

المصادر:

- د.إبراهيم شريف،أوربا-دراسة إقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية،مؤسسة الثقافة الجامعية للنشر،الإسكندرية، ١٩٦٠.
- -----، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح العربي الإسلامي،مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٥٢.
- -----،السهل الفيضي في العراق وقول آخر في تكوينه، مجلة جامعة تكريت، العدد ١، ١٩٩٩.
- -----، الشرق الأوسط - دراسة في اتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٥.
- -----،الصناعة النووية في إسرائيل ، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد ، العدد ٤٣ ، ١٩٩٧.
- -----، التمر في العراق ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٥٢ .
- -----، جغرافية الطقس،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، (لا توجد جهة طبع)، بغداد، ١٩٩١.
- -----، جغرافية الصناعة ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ .
- -----، د. علي حسين الشلش، جغرافية التربة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دار المعارف للطباعة والتوزيع، بغداد، ١٩٨٥.
- (١٠) ----- وآخرون، الجغرافية البشرية للساحل الثاني، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦ .
- (١١) -----، وآخرون،الجغرافية الطبيعية للصف الخامس الأدبي،وزارة التربية،(لا توجد مطبعة)، ١٩٩٧.
- (١٢) -----، حضارة المطاط وصناعاته ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، المجلد التاسع ، ١٩٧٦ .
- (١٣) -----،حضارة دودة القز وصناعة الحرير،مجلة الجمعية الجغرافية العراقية،المجلد الحادي عشر، ١٩٨٠.
- (١٤) -----، مناطق الأهوار في القسم الجنوبي من العراق، مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٤ .
- (١٥) -----، نهر الأردن ومشاريع الري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢ .
- (١٦) هارتشورن،طبيعة الجغرافية، ترجمة د.شاكر خصباك،الجزء الأول،جامعة بغداد،مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٤.
- (١٧) مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد السابع والعشرون، ١٩٩٩ .
- (١٨) مقابلات شخصية مع الدكتور إبراهيم شريف ما بين عامي ١٩٩٦-١٩٩٧.
- (١٩) أ.د.عبد الزهرة علي الجنابي،الجغرافيا الصناعية، دار صفاء للطباعة والنشر-عمان، دار الصادق الثقافية-بابل.
- (٢٠) د. علي محمد المياح، مناهج الجغرافية الإقليمية عند العرب في التراث والمعاصرة، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول، المجلد الأربعون، ١٩٨٩.
- (٢١) سمير فاهم سلمان، الفكر الجغرافي ومفاهيم البحث عند الدكتور إبراهيم شريف، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية- جامعة بابل.